

قبس من اللغة العربية وإعراها
د. أبو إدريس عبد الرحمن محمد
كلية اللغة العربية - جامعة القرآن الكريم - أم درمان

قال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

الحمد لله الذي اختار العربية لتكون لغة كلامه الأزلي، الذي هو خطابه تعالى لعباده جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. وهذا الاختيار - والله أعلم حيث يجعل رسالته - أو هذا الجعل للرسالة لا يقتصر على اختيار الإنسان، ولا يصدق فقط على اصطفاء الرسول (ﷺ) من سائر البشر وهو المقصد الأول في الآية - وإنما يصدق كذلك على أرض النبوة، وقوم النبوة الأوائل . وزمان النبوة ولغة النبوة، وما إلى ذلك من آفاق و أبعاد أخرى .

ويكفي ذلك العربية تشريفاً كما يكفيها دليلاً على قدرتها وإمكاناتها، واستيعابها لأبعاد الزمان (الماضي ، والحاضر ، والمستقبل) والمكان (الجغرافيا) ومصادق هذا قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك قرءاناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ...) وما يكون من ذلك من تطور البشرية ونمو فكرها .

فإذا حق لنا أن نقول : بأن القرآن الكريم جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه ومصادق هذا القول قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) فإن لغة القرآن - العربية - تكتسب بذلك خصائص

الهيمنة نفسها بالنسبة لسائر اللغات، وأوعية التفكير، ووسائل التعبير، والتغيير، والتواصل، قال تعالى: (وإنه لتزِيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين) وقوله تعالى: (قرءاناً عربياً غير ذي عوج) الصلاة والسلام على إمام البيان الذي ابتعثه الله تعالى في الذروة من قومه فصاحة، وبلاغة، وبياناً فأتاه الله جوامع الكلم حيث قال (ﷺ): (أوتيت جوامع الكلم) وكانت معجزته التي وسعتها اللغة العربية، وكانت أدائها بيانية بالدرجة الأولى، وكان عليه الصلاة والسلام محلاً للقول الثقيل: (إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً) .

كما كان المبين عن ربه ما نزل إليه، قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وعلى آله وصحبه الذين هم الروافد والطرق لهذا المسروروث إلى يوم القيامة .

وبعد

فهذا بحث يتناول خصائص ومميزات العربية بصفة عامة، وخصائص ومميزات إعرابها بصفة خاصة. وللوصول لهذه الخصائص والمميزات لا بد من عرض موجز يلقي الضوء على الأطوار التي مرت بها اللغة بعد نزول القرآن بها وانتشار الإسلام .

ففي طورها الأول في هذا المضمار: أن الناطقين بها كانوا أميين- قال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسلاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفی ضلال مبين) - لا يقرءون ولا يكتبون فكان مرجعهم في تلقي الإسلام والقرآن هو الرسول (ﷺ) الذي لا ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى) ..

فكان (ﷺ) هو مرجعهم فيما يأخذون وما يتركون قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال تعالى: (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون). فكانت الأمية في حقه صلوات الله وسلامه عليه شرف لا يدانيه شرف فقد علّمه وأدبه ربه فأحسن تأديبه ، أما وصف الأمية في غيره فذم لذا جاء (ﷺ) لحو الأمية بكل مستلزماتها ومقتضاها فأول ما أوحى إليه الأمر بالقراءة التي تعني ما قلنا ، قال تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم) .

وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم عجم .. وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي ويعزو ابن خلدون السبب في ذلك إلى أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السداجة والبدواة . وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه . والعرب يومئذ لم يعرفوا أمور التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة . وجري الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين (وكان المختصون بحمل ذلك ونقله) : يسمون القراء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء إشارة إلى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة من الرسول (ﷺ) لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسيره له وشرح قال (ﷺ) : (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي) . فلما كثرت

الفتوحات واختلط العرب بالعجم وفسد اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس ، واحتاجت إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها في معرفة قوانين العربية وغيرها فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع. وأن الصنائع من متحلل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها، والحضر في ذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحضرة الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده، والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما تربوا في اللسان العربي ومخالطة العرب فاكْتَسَبُوا اللسان العربي و صَيَّرُوهُ قَوَانِين وفناً لمن بعدهم وهكذا لم يَقم بهذه الصناعة وتدوينها في النحو وغيره من علوم التفسير والحديث وأصول الفقه فأكثر الحفظة لهذه العلوم هم عجم أو مُسْتَعْجِمُونَ باللغة والمربي ولم يَقم بحفظ العلم وتدوينه الأعاجم إلا وظهر مصداق قوله (ﷺ) : (لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس) .

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها من البداءة فشغلتهم الرئاسة في الدولة وحمايتها وسياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ وما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبداً يستكفون عن الصنائع والمهين وما يجر إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين. ففي علم اللسان العربي جعلوا أركاناً أربعة هي: اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية لأهل الشيعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة. وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة

بهذا اللسان لمن أراد علم الشرعية وتفاوت في التأكيد والأهمية بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً، وتحصل من ذلك أن الأهم المقدم هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة وكان من حق علم اللغة التقدم. لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على السناد والمسند إليه فانه تغيّر بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم وليست كذلك اللغة.

واللغة في المعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الخاصة بالعرب من أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني كالمجرور. أعني المضاف ومثل الحروف التي تُفْضِي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد من ألفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب وهذا هو معنى قوله (ﷺ): (أوتيت جوامع الكلم) فاختصر له الكلام اختصاراً فصار للحروف والحركات والأوضاع في العربية اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون منها، إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا إلى هذا العهد كلامنا فلما كثرت الفتوحات وانتشر الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما بقي إليها السمع من المخلفات التي للمستعربين والسمع أصل الملكات اللسانية ففسدت بذلك لجنوحها إليه باعتياد السمع فشعروا بذلك وخشي أهل العلم

منهم أن تفسد تلك الملكة نهائيا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو.

وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي، ويقال ذلك بإشارة من أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففرع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة. ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، وكان الناس أحوج إليها لذهاب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل أبوابها وأخذها عنه سيبويه فكمل تعاريفها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتابا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصدرين القديمين للعرب، وكثرت الأدلة والحجج بينهم وتباينت الطرق في التعليم، وكثر الاختلاف في كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في اختصار فاختصروا كثيرا من ذلك مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله واقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له.

وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية، وبالجملة فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحلط بها و طرق التعليم فيها مختلفة، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين ، و الكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك . وكان خاتمة المحققين في ذلك: جمال الدين بن هشام حيث أتى بكتابه المغني في الإعراب فقد استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرهما . فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأكثر في مؤلفاته الاستدلال بالقرآن لا سيما في كتابيه: قطر الندي وبل الصدى وشذور الذهب فكأنه بنهجه هذا يؤصل القواعد النحوية تأصيلاً. وبهذا فقد صدق فيه قول ابن خلدون: (مازلنا ونحن بالمغرب نسمع انه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له (ابن هشام أنخي من سيبويه) والله يزيد في الخلق ما يشاء.) (فوق كل ذي علم عليم). ولأهمية علم اللغة وما بعده من أركان اللسان لا بد من الحديث عنها حتى تكتمل هيئة الإيجاز غير المختل في هذا البحث .

فتقول علم اللغة هو بيان الموضوعات اللغوية. وذلك لأنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستتبكت القوانين لحفظها كما قلنا ، ثم استمر ذلك الفساد بملازمة العجم ومخاطبتهم حتى أدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ، ميلاً مع هُجَّة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالطة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن

والحديث. فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وكتبوا فيه الدواوين ، وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها: كتاب (العين) فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي ، وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً فتكون كلها أعداداً على التوالي، العدد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ، ثم تُضاعف لأجل قلب الثنائي لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرف فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على التوالي العدد، ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جمل مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبيها من حروف المعجم، وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه. ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخر وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصر منها فلذلك سُمي كتابه (بالعين) لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ، ثم بين المهمل منها من المستعمل ،

وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لثقله ولحق به الثنائي لقلته دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه ، وضمّن الخليل ذلك كله في كتاب (العين) واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه. وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ، وخصه للحفظ أحسن تلخيص.

وألّف الجوهري من المشاركة: كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف بحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم وحصر اللغة اقتداءً بحصر الخليل. ثم ألّف فيها من الأندلسيين ابن سيدة من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد: كتاب المحكم على ذلك المنحي من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب (العين)، وزاد فيه التعرّض لاشتقاقات الكلم وتصاريدها فجاء من أحسن الدواوين. وخصه: محمد بن أبي الحسن صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توأمي رحم وسلي أبيه .

هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهنالك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم، ومستوعبة لبعض الأبواب أو كلها ، إلا أن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما يشاهد فيها.

ومن الكتب الموضوعية أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز، بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ، وفيما تجوزت به من المدلولات، وهو كتاب عظيم الإفادة. ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها فوق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتاج إلى فقه في

اللغة عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه من بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب. واختص بالتأليف في هذا المنحي: الثعالبي وأفرده في كتاب له أسماء: (فقه اللغة) وهو من أوكد ما يأخذ به اللغوي نفسه من أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه، فليس معرفة الوضع الأول بكاف في الترتيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك، وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره وحذرا من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن في الإعراب، وأفحش.

وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها، وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر .

وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصصة بالتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهياً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ : لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما ، وبعضهما أقل لغة من بعضها لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ .

ومن الدعائم والأركان المكونة للغة : علم البيان وهو علم حادث في الملة الإسلامية بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ ، وما تفيد من المعاني، وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي : إما تصور مفردات تُسند وتُسند إليها ويُفضي بعضها إلى بعض . والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف ، وإما تميز المسندات من المسند إليها ، والأزمة ويدل عليها بتغير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات ، وهذه كلها هي صناعة النحو ، ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة على أحوال المخاطبين أو

الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل ، وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة ، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه ، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب فإنّ كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به ، بعد كمال الإعراب ، والإبانة ألا ترى أن قولهم : زيد جاءني مغائر لقولهم : جاءني زيد من قبل فإن المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم ، فمن قال : جاءني زيد أفاد أنّ اهتمامه بالحيء قبل الشخص المسند إليه ، ومن قال زيد جاءني أفاد أنّ اهتمامه بالشخص قبل الحيء المسند ، وكذلك التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام أو مبهم أو معرفة ، وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم ، وإنّ زيداً قائم ، وإنّ زيداً لقائم متغايرة كلها في الدلالة وإن استوت من طريق الإعراب فإنّ الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الشخص الخالي الذهن ، والثاني المؤكد بأن يفيد المتردد والمتطلع ، والثالث المؤكد بمؤكدين يفيد المنكر فهي مختلفة .

وكذلك تقول : جاءني الرجل ، وإذا أردت تعيينه ورفع الاحتمال تقول : جاءني الرجل عينه أو نفسه ، وإذا أردت تعظيمه : نكرته فتقول : جاءني رجل ، أي عظيم لا يعادله أحد . وقد يراد بالتنكير التحقير وهذا يفهم من المقام ومن سياق الكلام . ثم الجملة الاسنادية قد تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه ، ويعبر عنها أيضاً بأنها ما تحتل الصدق والكذب . والجملة الإنشائية وهي التي لا خارج لها . ويعبر عنها أيضاً بأنها ما لا تحتل الصدق والكذب ، كالطلب وأنواعه .

ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل من الإعراب فيشترك بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً وتوكيداً وبدلاً بلا عطف أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب ، ثم يقتضي المحل الإطناب والإيجاز فيورد الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه ، ويراد لازمه إن كان مفرداً كما نقول : زيد أسد

فلا نريد حقيقة السد المنطوقة وإنما نريد شجاعته اللازمة ، ونسندھا إلى زيد وتسمى هذه استعارة ، وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول : زيد كثير الرماد وتريد ما لزم ذلك عنه من الجود وقري الضيف لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما وهي دالة عليهما . وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد المركب ، وإنما هي هيات ، وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف : الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة . والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية ويسمى علم البيان ، وألحقوا بهما صنف آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع أو تورية عن المعنى المقصود بإهمام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك يسمى عندهم : علم البديع ، وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى .

وكتب فيها : جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم كتابات غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكي زبدته وهذب مسأله ورتب أبوابه وألف كتابه المسمى بالفتح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزاءه وأخذ المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات الكتب المتداولة إلى هذا العهد .

وأعلم أن ثمرة علم البيان إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال : منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها . وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصوله ملكته فيدرك من إعجازه عل قدر ذوقه فلـهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه (ﷺ) أعلى مقاماً في ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه .

وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غُفِّل عنه إلى أن ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة . ولأجل هذا يتحاشاه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة .

ورابع دعائم العربية علم الأدب الذي لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فن المنظوم والمثنوي على أساليب العرب ومناهجهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساو في الإجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة، والمقصود بذلك كله ألا يخفي على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه . لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه .

وأصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها ، وكتب المحدثين في ذلك كثيرة . وكلن الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن كما هو تابع للشعر إذ أن الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه . فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة عندهم وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني كتابه في الأغاني جمع فيه أشعار العرب وأخبارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتاً التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمري أنه ديوان العرب وجامع أشات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأئى له بها .

نخلص مما ذكرنا إلى أن اللغات ملكات لذا كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات ، ووجه التعليم لمن يتغى هذه الملكة عليه أن يعرف قوانين هذه الملكة ثم يعود نفسه حفظ كلام أصحاب هذه الملكة القدم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب .

ولما كانت قريش موطنها أبعد من بلاد العجم من جميع الجهات كانت لغتها أفصح اللغات العربية وأصرحها ، ولا غرو في ذلك لأنها اللغة التي اختارها الله تعالى لتكون لغة كلامه الأزلي الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

وهي اللغة التي خلدها الله تعالى أزلاً بتعلق علمه بها أزلاً لأنها لغة القرآن ، وخلدها أبداً بتزول القرآن بها فاكتمست الخلود الأبدي فأضحت لغة الدنيا والآخرة التي هي الحيوان ، قال تعالى : (وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون) فهي لغة أهل الجنة في الجنة ، وهي التي أوجب الله تعالى تعلمها لأنها الأداة لكتابه الكريم ، والأداة لسنة نبيه الرعوف الرحيم . وبهذين الأمرين يتحتم فهمها من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ولما كان قوم الرسول (ﷺ) المرسل إليهم : الثقلين تعلق الواجب بتعلمها لكل من تقله الكرة الأرضية ، قال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك قرءاناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) . ولما كانت أم القرى هي مركز الأرض تعلق الوجوب بكل من على ظهرها ، تعلق تكليف . وتعلقت رسالته بغير هذين الثقلين تعلق تشريف فهو المرسل للمخلوقين جميعاً ، قال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

ومما يحتم تعلمها أنها لغة الإنسانية جمعاء التي اختارها الله تعالى لخلافة الأرض وعمارتها ، قال الله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) . وقال الله تعالى : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) .

وهي لغة من خلق الله تعالى لهم العالمين العلوي والسفلي ، قال الله تعالى : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) وقال تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

ومن هذه الخلافة للإنسان والخلق والتسخير له يتبين أن الوجود يتمثل في أمور ثلاثة هي : الإنسان الذي هو مَعْنَى بالخلق والتسخير له . والكون العلوي والسفلي وهو اللوح الصامت ، والقرآن الكريم الموجه والهادي لمن استخلفهم الله تعالى في

الأرض وسخر لهم الكائنات ، ولا يتأتى لهم الإمكان من الانتفاع مما سخر لهم إلا بالأمر الثالث وهو اللوح الناطق، وهو القرآن الذي يكشف ما وراء الطبيعة ويبين لهم الكون الصامت الذي هو لغز لكي يستثمروه وينتفعوا به ولا سبيل للانتفاع إلا بمعرفة اللغة التي نزل بها القرآن، فهي الأداة لمعرفته وهذا الاختيار للقرآن ولغته يتعين على الإنسانية جمعاء معرفة اللغة العربية لكي تتمكن من أداء رسالتها فيما خلقت له وما خلق لها . وبهذا الفهم الصحيح المطابق للواقع تكون اللغة العربية هي لغة الإنسانية جمعاء وليست لغة العرب فحسب ، والقرآن ليس قرآن العرب فحسب والرسول (ﷺ) ليس رسول العرب فحسب بل رسول للعالمين جميعا ، قال الله تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) وقال جل شأنه : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وبذكر هذه الحقائق الدامغة المخرسنة والمسكتة يتضح أن الحال والمآل للغة العربية بعد أن كان الماضي لها حيث وجدت وأثبتت وجودها في بيئة تند فلذات أكبادها خوفا من الفقر قال تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا) فقد قيس الله تعالى لها الحفظ في هذه البيئة التي تفقد جميع مقومات الحفظ بأن أهم الناطقين بها تربية أبنائهم في نشأتهم الأولى في البادية حفظا لهم من الاختلاط الذي يؤدي إلى فساد ملكتهم اللغوية . وهذا ما سار به على صاحب العناية الإلهية حيث أرضعته حليلة السعدية رضي الله عنها في بادية بني سعد لنفس الغرض الذي انتهجته بيئته القرشية .

وكما أخبر تعالى بخلودها وأبديتها _ بعد أن بيضا أزليتها- حيث قال جل شأنه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فيلزم من حفظ القرآن حفظ لغته التي نزل بها، وهذا يعني أن الحق عز وجل سيهيئ للغة من يزود عنها إلى يوم القيامة على الرغم

من الجهود التي بذلت من اليهود والمستشرقين عامة لحصارها وعزلها ، والجهود التي ستبذل ممن ذكروا وممن رضعوا ثديهم وتأثروا بهم حتى وصل بهم التأثير إلى أن وصفوا اللغة بالصعوبة والتقعر وأنها لا تواكب العلم والحضارة بل وصل بهم تأثرهم وذواب شخصيتهم إلى الاقتراح بأن تبدل حروفها بحروف لاتينية أو بما أصلها لاتيني ، انظر إلى فعل اليهود والمستشرقين في اللغة العربية وفي الناطقين بها . علما بأن الاستشراق لم يلجأ إليه إلا بعد أن أحسوا أن اللغة العربية كعصا موسى عليه السلام تنلقف كل ما تحتك به من اللغات والحضارات فتصهرها وتذوبها فيها ، فابتكروا للغاتهم ما يكسبها البقاء ويحميها من هيمنة اللغة وقدرتها على نحو اللغات والحضارات بأن عملوا على تهميش اللغة العربية، ولم يمكنوها بحكم استعمارهم وسلطانهم من أن تكون لغة الدول التي استعمروها بل ذهبوا أبعد من هذا بأن جعلوا لغاتهم هي لغة العلم والحضارة وكل حديث مبتكر لكي تحمي بذلك وتكتسب الانبهار من كل جديد ولكن قاعدة العقل والمنطق السليم : أن البقاء للأصلح . يؤيد هذه القاعدة قول الحق : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) .

ولعلنا من هنا ندرك لماذا أنزل القرآن بلسان عربي مبين وأعتمد العربية وأسسها ، وأنه لم يقم وزنا لقضايا اللون والجنس والقوم ، وحسبنا أن نقول بأن قضايا الجنس واللون والقوم هي أمور قسرية ليست من صنع الإنسان كما أنها ليست من اختياره ، أما أمر اللغة فهو أمر كسي تعليمي وتعلمي بمقدور كل إنسان أن يحصله . وقد لا تكون هذه القضية بحاجة إلى أي تدليل ، فاللغة في مراحلها البدائية الأولى وحتى صورها الذهنية المجردة المتقدمة هي كسبية تعليمية إضافة إلى أن غير العرب استطاعوا أن يتعلموا العربية ويدعوا ويؤلفوا فيها ويبلغوا الذروة، فالكثير من محتويات المكتبة الإسلامية واللغوية منها بشكل خاص هي من إنتاج غير العرب الأمر

الذي يؤكد أن الخطاب القرآني للعالمين الذي جاء بالعربية استوعبه المخاطبون على اختلاف لغاتهم ولم يشكل لهم أي عقبة .

بل العقبة حقا وضعها المسلمون بترجمته التي سلبته كل خصائصه الإعجازية حيث نقلته لهم في ثوب محتقر من خلال لغاتهم فيدركونه محقرا مجزئا لأن التفكير والذوق والخيال يختلف من لغة إلى أخرى وقد لا نكون في حاجة إلى التأكيد بأن خصائص اللغة العربية ومميزاتها لا تدانيها أي لغة فيها، ومن هنا كان دورها في بناء الأمة وصناعة وجدانها وبناء ذاكرتها وتكوين هويتها وثقافتها ، وضمان تماسكها وتواصل أجيالها وتوسيع دائرة تفاهها وتفاعلها والمساهمة بتشكيل نخط تفكيرها والتأثير في مسالكها وأخلاقها فاللغة لا سيما العربية هي الترسنة الفكرية والثقافية التي تبني الأمة وتحمي كيانها وتحافظ على شخصيتها بمقوماتها الفريدة .

ولأهمية اللغة العربية رتب الإسلام مسؤوليات كبرى على عملية اللغة حيث اعتبر الكلمة الطيبة صدقة ، كما اعتبرها كالشجرة الطيبة المثمرة الممتد أثرها على الزمن في أبعاده الثلاثة : الماضي ، والحاضر، والمستقبل ، فأصلها ثابت وفرعها ممتد تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وأن المسئولية يوم القيامة سوف تتركز على القول وأثره في صناعة السلوك المستقيم أو المساهمة بالانحراف ، قال الله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) . يضاف إلى ذلك أن اللغة مرآة نفسية ، وأوضح نوافذ ووسائل الاستبطان النفسي الذي في ضوئه يمارس الإنسان أنشطته وعلاقاته مع بني جنسه في المجالات المتعددة فاللغة من الناحية الثقافية وعاء تفكير وأداة تعبير ، واللغة هي جوهر الثقافة ، وهي التنمية ، واللغة هي الوطن والأمة لذلك اعتبر كثير من العلماء أن العروبة هي اللسان وأن الكلام بغيرها لغير حاجة يخشى أن يورث النفاق ، قال رسول الله (ﷺ) : (من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية فإنه يورث النفاق)

(59) وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : (إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله ، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون) . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يرى أن الطريق الحسن في ذلك هو (اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقنها الصغار في المكتتب وفي الدور فيظهر شعار الإسلام وأهله ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقهه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف بخلاف من اعتاد لغة ثم أخذ أن ينتقل إلى أخرى فإنه يصعب عليه) . ومن الجدير بالذكر والتنبيه تسجيل تلك الرؤية الدقيقة والمبكرة لأثر اللغة ودورها في التفكير وصياغة الشخصية عند الإمام ابن تيمية رحمه الله حيث يقول : (إن اعتياد اللغة يؤثر في العقل ، والخلق ، والدين ، تأثيراً قوياً بينا ويؤثر أيضاً في مشاهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ومشاهتهم تزيد العقل والدين والخلق) ثم يؤكد ابن تيمية على أن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

لقد حرصنا في هذا البحث كل الحرص على أن نورد رؤية ابن تيمية هذه ونضعها حيال ما تقوم به الجهات المشبوهة من نسبة الحمود وغيره من صفات الذم التي أشرنا إليها لكي تفسح المجال للعامة والأجنبية واللهجات المحلية وكل ما هو غريب وهجين على حياة الأمة وامتدادها باسم التمدن والتقدم والمواكبة و (العولمة) وما إلى ذلك من المصطلحات الخادعة علماً بأن الإنسان إذا فقد ذاتيته لا يعد موجوداً ولا مؤهلاً للتعامل مع هذا جميعه .

وإذا نظرنا إلى الحواجز التي تقام لمحصرة اللغة العربية من أبنائها وكيف أن مجامع اللغة أصبحت أشبه بجنّام معزولة تعاني الكثير من غربة الزمان والقطيعة مع الواقع الثقافي واللغوي أدركنا عظم البلاء الذي لحق بالعربية على يد أبنائها حتى المتحمسين

لها ، لأن الحماسة هنا لا تفيد أكثر من شحذ الفاعلية التي تتضائل إذا لم تتوافر لها الاختصاصات المطلوبة والخبرات الضرورية .

وأكثر من ذلك فإن المناهضين للعربية والمتحكمين في العالم اليوم أصبحوا بما يطرحون من اهتمامات و أفكار قادرين على توجيه اللغة العربية نفسها وتحويل مصطلحاتها إلى الوجهة التي يريدونها ، وأصبح بإمكانهم تغيير بعض المفردات والمصطلحات واستدعاء أخرى لئلا تملأ الذهنية الثقافية العربية الإسلامية ، ويمكن أن تتسرب إليها بعض المدلولات الإضافية التي تخدم ثقافتهم وتمهد لتشرها من خلال العربية ولولا القرآن الكريم لأصبحت العربية على يد أبنائها أثرا بعد عين .

والعجيب أن الكثير من مؤسسات العمل الإسلامي والدعوى بمختلف مواقعها لم تدرك العواقب البعيدة لعدم خدمة اللغة بالشكل المطلوب ، وتسهل تعلمها للناطقين بها ولغير الناطقين بها على السواء إن لم يكن هذا فرضا واجبا فليكن أسوة بانتشار تعلم اللغتين : الإنجليزية والفرنسية بأحدث الطرق والوسائل التعليمية والمراكز والبرامج التي تحقق الهدف .

ومجال بحثنا هذا محكوم بعنوانه لذا لا يسعنا ذلك لذكر أكثر مما قلنا عن الخصائص والمميزات للغة العربية ، بل يحكمنا موضوع البحث أن نخرج على الشطر الثاني فنقول : إختصت اللغة العربية من بينها من اللغات : أن حقيقتها تتمثل فيما يتمثل في العالمين العلوي والسفلي ، حيث تتمثل حقيقتها من أجرام وأعراض . فالجزم أو الجوهر : ما قام بنفسه وأخذ قدرا أو حيزا من الفراغ . والعرض : ما قام بغيره ، وهذا هو شأن اللغة العربية وحقيقتها حيث تتمثل حقيقتها من أجرام وهي حروفها الثمانية والعشرون حرفا التي إذا كتبت أو نطق بها فإنها تقوم بنفسها وتأخذ حيزا مما كتبت عليه أو تشغل موضعا من مواضع مخارجها في حالة النطق بها . أما أعراضها

تتمثل في حركاتها الأربعة وهي : الفتحة ، الضمة ، الكسرة ، و السكون ، وجميعها لا تقوم بنفسها بل بغيرها من الحروف التي هي أجرامها . ولما كان العرب في لغتهم لا يبدعون بساكن ولا يقفون على متحرك انقسمت هذه الأعراض إلى قسمين : حركة وسكون . فالحركة تكون بالفتحة وبالكسرة وبالضمة ، والسكون هو عدم الحركة ويتمثل في حالتين : أولاهما السكون الأصلي المعبر عنه برقم ال (5) في الحساب ، وثانيهما غير أصلي بل متولد من الحركات الثلاثة في حالة إشباعها في النطق أي مدها فالمد في هذه الحركات قد يكون طبيعيا وهو الذي يمد حركتين فحسب وغيره المد الجائز والواجب واللازم وهي التي يتأتى فيها إشباع الحركة بمدها فيتولد من كل حركة ما يناسبها ، فإذا مدت الفتحة في النطق تولد منه ألف أو ألف بعده همزة ، نحو : الفتي وجاءوا ، وإذا مدت الكسرة تولد منها ياء أو ياء بعدها همزة كيرمي وتقيء ، وإذا مدت الضمة تولد منه واو أو واو وبعده همزة مثل قاموا ، تبوء ، والألف والياء والواو في هذه الأمثلة تسمى حروف مد مد الحركة قبلها والتي كان المد سببا في وجودها . فحروف المد هذه لا يتسنى عليها وجود الحركة لأنها وليدة الحركة ومتسببة عنها فعدم حركتها يعني سكونها ، وسميت هذه الحركات أعراضا لعروضها وحدوثها، فالعرب الفصحاء الأصلاء كانوا لا يحتاجون في نطقهم بلغتهم ما يؤدي إلى ضبطها بل كانوا ينطقونها سليمة لأنها ملكة راسخة في نطقهم.

وقد تتبع علماء اللغة لما يعرب بالضمة فحصره في الاسم المفرد ، وفي جمع التكسير وفي جمع المؤنث السالم ، والفعل المضارع المجرد من الناصب والجازم مثل : جاء محمد ، وهذا محمد ، قالت الأعراب ، قام الرجال ، جاءت الهندات ، هؤلاء الطالبات ، محمد يقوم بواجبه ووجدوا الفرع الذي ينوب عن الضمة من الحروف فيما يأتي الواو في الأسماء الستة أبوك وأخوك.. الخ . وفي جمع المذكر السالم وما ألحق به نحو:

(وأولئك هم المفلحون) ، جاء المسلمون . والألف في المثني : نحو : إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار) ، هذان عالمان تقيان ، والنون في الأفعال الخمسة وهي كل مضارع اتصلت به واو الجماعة أو ياء المخاطبة أو ألف الاثنين ، نحو : يفعلون ويفعلان وتفعلين ، وتتبعوا ما يعرب بالفتحة فوجدوه في الاسم المفرد وجمع التكسير والمضارع الذي دخل عليه ناصب نحو : رأيت محمدا ، ورأيت الرجال ، لن يجلس ، وتتبعوا ما ينوب عن الفتحة فوجدوه في المواضع التالية : الألف في الأسماء الستة والياء في جمع المذكر السالم والمثنى وما الحق بهما ، وحذف النون في الأفعال الخمسة في حالة دخول ناصب عليها مثل : رأيت أباك ، رأيت المسلمين ، رأيت الزائرين ، (لن تنالوا البر حتى تنفقوا) .

أما ما تقدر فيه الحركات فهو ثلاثة أنواع : ما تقدر فيه الحركات الثلاثة وهو نوعان : أحدهما : ما أضيف إلى ياء المتكلم وذلك نحو (غلامي) و (غلماني) و (بناتي) ، قال تعالى حكاية عن نبي الله لوط عليه السلام : (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) (80) ، فهذه الأمثلة تعرب بحركات مقدرة على ما قبل ياء المتكلم . والذي منع من ظهور الحركة عليها التزامهم بأن يأتوا قبل الياء بحركة تجانسها وهي الكسرة فاستحال حينئذ المجيء بحركات الإعراب قبل الياء إذ أن المحل الواحد لا يقبل حركتين في الآن الواحد فنقول في إعرابها : منع من ظهور الحركة اشتغال المحل بحركة المناسبة أو المجانسة هذا إذا لم يكن الاسم مثنى ولا جمع مذكر سالم لأن الياء تثبت فيها جرا أو نصبا مدغمة في ياء المتكلم والألف تثبت في المثني رفعاً ، وليس شيء من (الحرف) المدغم ولا من الألف قابلاً للتحريك نحو : (غلاماي) و (غلامي) و (مسلمي) وكذلك المنقوص لأن ياءه تدغم في ياء المتكلم ، فتكون كالمثنى ، والمجموع جراً ونصباً . وأيضا المقصور لأنه تثبت ألفه قبل الياء والألف لا تقبل الحركة فهو كالمثنى رفعاً ، قال تعالى :

(يا بشرا هذا غلام) نوديت البشرى مضافة إلى ياء المتكلم وفي الألف فتحة مقدرة لأنه منادى مضاف ، وقرأ الكوفيون : (يا بشرى) بغير إضافة فالمقدر في الألف أما ضمة كما في قولك (يا فتى) لمعين ، وأما فتحه على أنه نداء شائع مثل (يا حسرة على العباد) . إلا أنه لم ينون لكونه لا ينصرف لأجل ألف التأنيث .

وثانيهما : المقصور وهو الاسم المعرب الذي آخره ألف لازمة كالفتى والمرضى تقول : جاء الفتى ورأيت الفتى ومررت بالفتى ، فتكون الألف ساكنة في الأحوال الثلاثة لذا تقدر فيها الحركات لتعذر حركتها .

ما تقدر فيه حركتان وهو نوعان : أحدهما : ما تقدر فيه الضمة والكسرة فقط وتظهر فيه الفتحة وهو المنقوص وهو الاسم المعرب الذي آخره ياء لازمة قبلها كسرة مثل : (القاضي) و (الداعي) تقول : (جاء القاضي ومررت بالقاضي) بالسكون فيهما ، و (رأيت القاضي) بظهور الفتحة على الياء ، وإنما قدرت الضمة والكسرة للثقل ، وإنما ظهرت الفتحة لخفتها قال تعالى : (فليدع ناديه) .

ثانيهما : ما تقدر فيه الضمة والفتحة وهو الفعل المعتل بالألف تقول : (هو يخشى) ومنه قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (85) . ولن يخشى الله ، فإذا جاء الجزم ظهر بحذف الآخر فقلت : لم يخش الله . قال تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) (86) .

ما تقدر فيه حركة واحدة وهو قسمان :

1/ الفعل المعتل بالواو : (كيدعو) .

2/ الفعل المعتل بالياء : (كيرمي) .

فتكون علامة رفعهما ضمة مقدرة منع من ظهورها الثقل في النطق ، وتظهر فيهما حركتان :

- 1/ الفتحة وذلك لحفتها نحو (لن ندعو من دونه إلها) و (ولنحيي به بلدة ميتا ونسقيه) و (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) .
- 2/ الجزم بحذف الآخر نحو : (ولا تمش في الأرض مرحا) و (ولا تقف ما ليس لك به علم) .

ومن مزايا وخصائص العربية : أنهم يشتقون الأفعال من أسماء الذوات ويقولون تحجر الطين واستونق الحمل ، واستتيست العتر واسترجلت المرأة ، فتراهم هنا اشتقوا الأفعال من الحجر ، والناقة ، والتيس ، والرجل مع أن أصلها أن تشتق من أسماء المعاني ، كالضرب والعلم والفهم ، يقصدون بذلك : أن هذه الأشياء المذكورة في الأمثلة الأربعة تحول كل منها من حال إلى حال فتحول الطين إلى حجر ، والجمل إلى ناقة ، والتيس إلى عتر ، والمرأة إلى رجل .

ومن خواص العربية ما ذكره السيوطي في المزهري حيث قال : (ومن السنن التي لا توجد في غير لغة العرب : مخالفة ظاهر اللفظ لمعناه . كقوله : قاتله الله ما أشجعاه ، وثكلته أمه ، أي فقدته ، وتربت يمينك ، يقولون هذا ولا يريدون وقوعه وإنما يكون ذلك عند التعجب من فعل يفعل المخاطب ، وقد يكون فيه مدح له ومثل هذا وغيره لا يحصر ، ومن أراد الوقوف على هذا فعليه بكتابي الخصائص لابن جني والبيان والتبيين للجاحظ ، والمقام لا يتسع له بل ما أوردناه في هذا الشأن يعتبر من قبيل التنبيه على عظمة اللغة العربية التي وسعت كتاب الله لفظا وغاية ، وهو ما قال عنه منزله جل شأنه : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد) . صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله النبي الكريم ، ونحن على ذلك من الشاهدين ، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

المراجع

- القرآن الكريم
- أبو الأسود الدؤلي- الواضع الأول لعلم النحو بأمر من أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب كرّم الله وجهه ، انظر تاج العروس للزبيدي.
- إمام دار الهجرة: مالك بن أنس : كتاب الموطأ ، ط. دار إحياء التراث العربي (بدون تاريخ).
- البخاري: محمد بن إسماعيل: الصحيح بشرح فتح الباري ط. دار الفكر للنشر والتوزيع.
- ابن تيميه: أحمد بن عبد الحليم : اقتضاء الصراط المستقيم: مخالفة أصحاب الجحيم.
- الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي : فقه اللغة والصراط المستقيم : دار الجيل- بيروت ط. أولى 1418هـ - 1998.
- الجاحظ : البيان والتبيين- الخانجي- القاهرة.
- الجرجاني : الشريف علي بن محمد الجرجاني- التعريفات : دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
- ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني- الخصائص : تحقيق: محمد علي النجار. ط. القاهرة.
- الجوهري مختار الصحاح- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

- الحاكم : أبو عبد الله محمد الحاكم : المستدرك ج⁴ ص 98، حديث رقم 7001- ط. أولى. دار الكتب العلمية- بيروت، 1411هـ -1990م
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربي- المقدمة- مطبعة : مصطفى محمد . القاهرة.
- الخليل بن أحمد : العين. ج¹ ص 60-61 ، سلسلة المعاجم والفهارس - دار مكتبة الهلال.
- الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن - المطبعة الميمنية- القاهرة.
- الزبيدي : محمد المرتضى الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس - مقدمته ص29. وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت. 1385هـ -1965م.
- الزبيدي : أبو بكر محمد بن الحسن وهو أندلسي : مختصر كتاب العين.
- الزجاج : ما ينصرف وما لا ينصرف - ط. أولى (1391هـ -1971م).
- الزمخشري : أساس البلاغة : ط. دار صادر - بيروت : المفصل في صنعة الاعراب دار ومكتبة الهلال.: الكشف عن حقائق التزويل وعيون التأويل في وجوه التأويل - ط. الحلبي - مصر.
- السكاكي : هو الإمام سراج الملة والدين - المفتاح ط. أولى بيروت - لبنان 1403هـ -1983م.
- ابن السكيت : أبو يوسف يعقوب بن اسحق - كثر الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ . ط. 1895، بيروت.
- سيبويه : الكتاب - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . ط. أولى - دار الجيل - بيروت.

- ابن سيدة : المحكم والمحيط الأعظم في اللغة .. تحقيق مصطفى السقا ودكتور حسين نصار ط. أولى 1377هـ - 1958م.
- السيوطي : المزهرة - تحقيق: أحمد أبو الفضل وجاد المولى . ط. الحلبي: بغية الوعاة ط. عيسى الحلبي القاهرة.
- الشافعي : الرسالة : تحقيق : الأستاذ / أحمد شاكر. ط. القاهرة.
- الأصبهاني : علي بن الحسين بن محمد القرشي الكاتب : الأغاني - مؤسسة عز الدين للطباعة.
- ابن عقيل : شرح على ألفية ابن مالك - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الفارسي : هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار انظر : ترجمته في كتابه المسائل البصريات. ط. 377هـ - القاهرة.
- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم - أدب الكتاب - بيروت. ط. ثانية 1405هـ - 1985م.
- قدامة : أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي - نقد الشعر - مكتبة الكليات الأزهرية.
- المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد : الكامل - ط. فحضة مصر - القاهرة.
- ابن مالك : أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك - الألفية شرح ابن عقيل. ط. دار الفكر للطباعة والنشر.
- مسلم : الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج - الصحيح بشرح النووي - ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ابن منظور ك لسان العرب. ج¹ ص 588 مادة: عرب. ط.: دار صادر.

- ابن هشام : الإمام أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف : أوضح المسالك إلى
ألفية بن مالك . ط. أولى دار الكتب العلمية 1418 هـ - 1997م.